

دور الزوايا والخرق الصوفية في المقاومة الشعبية للاحتلال

الأستاذ عبد الرحمن مصطفى

أمين عام تنسيقية الزوايا بتيزي وزو

يَا لَذَى هُوَ خَيْرٌ ﴿البقرة: ٦١.. يضعف في جانب المقاومة عن القيم والمبادئ ويحرص على المقاومة عن الشهوات وقد يقاوم بعض الناس عن القيم، ويرفع له في ذلك ذكر، ولكنه إذا أصيب فيما يتعلق بغرائزه وأهوائه وعاجل أمره استرخص القيم، وتراجع عما كان عليه من قبل.

فالمقاومة مصطلح سياسي حديث التداول على الألسنة، وهو لفظ مشتق من الفعل الثلاثي (قام) الذي من معانيه ما ورد على السنة فتية أهل الكهف، قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ الكهف: ١٤، وهو هنا بمعنى العزم والثبات، وفي كلام الناس قام في وجهه أي صده ومنعه وصارعه أو قاومه، وسوق قائمة أي نافقة،

المقاومة فطرة الله - جلّ جلاله - في جميع المخلوقات، يلجأ إليها هذا الكائن إذا مس في شيء من ممتلكاته، ولا يلجأ إليها كائن آخر إلا إذا مس في جوهر حياته...

ويختلف الإنسان - طبعا - عن سائر الكائنات في اتساع وتعقد دوائر تعلقاته واهتماماته، فهو بفطرته وجبلته أسمى المخلوقات على الإطلاق لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْحِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء: ٧٠. وهو أحرصها على الدفاع عن ثرواته المادية والمعنوية، ولكنه قد يروض من خلال شهواته وأهوائه فينتكس همه وتساميه فيستبدل ﴿الَّذِي هُوَ أَدْنَى

- تقاعس أهل الأهواء عن الاستجابة لنداءات المقاومة، أو الثبات عليها؛ لأن الشعور بالفرق بينهم وبين محتلمهم وغاصبهم أقل شأنًا من أن يدفعهم إلى المقاومة والتضحية، ما داموا لا يرونه مناقضًا لهم مخالفًا لمآربهم.

- سرعة الاستجابة لنداءات المقاومة من أهل القيم والمبادئ السامية، الذين يهون عليهم فقد عرض من أعراض الأهواء، ولكنهم لا يقبلون السوم في قيمهم وعناصر سوؤدهم، ولو كلفهم ذلك دفع أرواحهم الغالية.

وتؤكد التقارير التاريخية، والممارسات الميدانية للسلطات الفرنسية أن الدخول إلى الجزائر كان بهدف طمس معالم الشخصية الإسلامية للأمة، والاستحواذ بعد ذلك على خيرات البلاد وثروات العباد، فهذا الرحالة (Poujoulat) وهو صديق الجنرال (بيجو) قال : (إن الحرب التي نقوم بها في إفريقيا إنما هي حلقة من حلقات الحروب الصليبية) .. وهذا الكاتب (مارسيل امريت MARCEL EMERIT) يقول : (كان العربي - الجزائري - في عام 1830م

وسوق نائمة أي كاسدة فالقيام عن قعود والجلوس عن قيام إذ الصواب اللغوي أن نقول كان نائمًا فقعده، وكان واقفا فجلس ... ومنه قوله تعالى ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء: ٩٥.

ومن هذه الوقفة الدلالية للألفاظ ندرك أن للمقاوم شحنة نفسية و طاقة معنوية، لا ينبري أحد للمقاومة إلا بهما، فهي التي تنقله من حال السكون إلى حال الحركة، أو العكس، وتقوى هذه الطاقة أو تضعف بقوة أو ضعف الدافع لها.

قال الشاعر :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
تعظم في عين الصغير صغارها
وتعظم في عين العظيم العظام
وما دام ثمن المقاومة التحريرية هو بذل النفس والنفيس، فإنها لا تنشد إلا من يرى القعود عنها هلاكًا لنفسه و نفيسه، وبما أن الاحتلال الفرنسي لبلادنا يشمل انتهاك الأموال والأبدان، والدين والقيم، فقد يهون على ذي المروءة فقد ماله، ولكنه لا يرضى بفقد شرفه وعزته، ومن هنا نفهم:

بكل حقد وضغينة، بل إن منهم من ركب البحر وشارك في الحملات محرّضا ومستجيبا لانتهاكات يندى لها جبين الكنيسة على مر الزمان.

كما اجتهدت قوات الاحتلال في إغراء الطامعين المنبوذين بنخشب الأرض واعتدال الطقس ووفرة أسباب الثراء.. فتكالب الفريقان معا: الصليبيون الحاقدون والغاصبون الجشعون على حين غرة وجهل وشتات في الرعاية والرعية من المسلمين.

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه

يهدم، ومن لا يتقي الشتم يشتم

فلم يتعظ الثور الأسود بما وقع للثور الأبيض، وقد وقع لمسلمي الأندلس بالأمس ما يجب أن يتعظ به مسلمو المغرب والمسلمون في كل زمان ومكان!!

وفي مثل هذه النكبات المريعة من الصراعات الداخلية، والأطماع الخارجية، وسقوط الأندلس، فتح الله تعالى على بعض العباد بإنشاء مؤسسات تربوية تكوينية، بسيطة المظهر قوية الأثر والمخبر ألا وهي الزاوية، التي لا تخالها

يعرف القراءة والكتابة، ولكنه أصبح يتخبط في ظلام الجهل عندما مضى نصف قرن على الاحتلال) .. وهذا ألكسي دي طوكفيل A.De Tocqueville عام 1847 قال : ((لقد وضعنا أيدينا في كل مكان على مداخيلها (أملاك الأوقاف)، وذلك بتحويلها إلى أشياء أخرى، عكس الأشياء التي كانت قد خصصت لها لقد أضعنا المراكز الخيرية، اعملنا المدارس، شتتنا الزوايا، أطفئت الأنوار من حولنا وقد انتهى انتقاء وتوظيف رجال الدين والقضاة، أي أننا جعلنا المجتمع الإسلامي أكثر بؤسا وأكثر تشتتا وأكثر جهلا وهمجية مما كان عليه قبل أن يتعرف علينا))..

ولقد استنفرت فرنسا في حملتها هذه كل وسائل الدعم والتأييد من الأوروبيين جميعا باعتبارها امتدادا للحروب الصليبية كما ورد في تقرير (Poujoulat) وغيره .. وثأرا وانتقاما للفتوحات الإسلامية التي زحفت على أوروبا من شرقها وغربها حتى كاد محيط البحر الأبيض المتوسط أن يلتهم بعقد الإسلام وإشعاعه ..

فاستنهضت فرنسا الكنيسة وقساوستها بكل أطباقهم، ولبوا النداء

أو قبيلتين تسير تحت قيادة زعيم وتحت رايات الزوايا وأعلامها.

وقد قدر عددهم الضابط (روبان) بحوالي 25 ألف رجل، واستقبلهم الداوي حسين عند وصولهم إلى مشارف العاصمة بكل حفاوة ووزع على بعضهم أسلحة، ووعدهم بتقديم كل ما يحتاجون إليه، وتمركزوا في نواحي الحراش، ثم انتقلوا إلى ناحية اسطوالي وشاركوا في المعارك التي دارت هناك، ثم في متيجة بعد 05 جويلية 1830م .. وبعدما تم الانسحاب إلى ما وراء سهل متيجة، وفي اجتماع لهم في تمانتفوست قرروا مواصلة الحرب ورفض أي سلم يمكن إبرامه مع فرنسا، وقد شجعهم على اتخاذ هذا القرار الحاسم الانتصار الذي حققوه في البليدة على قوات (دي بورمون).

وسرعان ما أدركت السلطات الفرنسية ما للزوايا من مكانة في المجتمع الجزائري، بعد أن كان همها الأول فهم الواقع الاجتماعي والإشكالات التي يسير عليها ولا سيما بعد سلسلة من الهزائم التي تلقتها الجيوش الفرنسية.

فهذه مقاومة الأمير عبد القادر بعيد

سميت كذلك إلا لتكون ركنا ركينا يلجأ إليه لاستجماع عناصر القوة وأسباب النصر، وتجديد الهمة.

فالزاوية مؤسسة كاملة متعددة الاختصاصات، كأنها أنشئت لتكون بديلا يملأ الفراغ الهائل الذي أحدثته ظروف الفشل المتراكم من عصر ما بعد الموحدين، بل هي (عصب المجتمع الإسلامي في الجزائر، فهي التي حافظت على البنية الاجتماعية، وعلى تماسك الأسرة والمجتمع ... ولو كانت في الأندلس ما خرج الإسلام منها.

موقف الزوايا من الاحتلال:

عندما أرسل الداوي حسين على إثر سماعه بخبر الحملة الفرنسية التي نزلت بسيدي فرج رسائل إلى مختلف الجهات من القطر الجزائري، ومنها بلاد القبائل يوضح فيها خطر هذه الحملة على البلاد بشكل عام، وأن الدين الإسلامي يحتم عليهم القيام للتصدي لهذه الحملة.

وبمجرد وصول هذه الرسالة إلى بلاد القبائل، أرسل زعمائهم والأشراف منهم (المرابطون) إلى مختلف القبائل للانطلاق جميعا نحو العاصمة، وكانت كل قبيلة

ابن زعموم، وبلقاسم اوقاسي، وسي الجودي، كل في ناحية.

وقد كان معظم علماء الزوايا وشيوخ الطرق الصوفية لا يفرقون بين الروح الدينية والعاطفة الوطنية في نفوس الجزائريين، وخاصة بعد الاحتلال، وهذا قبل ظهور الحركات الوطنية بعدها السياسي، إذ استمر الشعب الجزائري بهذه الروح والعاطفة من مقاومة إلى أخرى، وقد شهد المحتلون أنفسهم بهذه الحقيقة التاريخية حيث قال العقيد (دونوفو DENEVEU) : (وهذا التنظيم الخفي، والقوي (نظام الزوايا والطرق الصوفية) هو الذي كان يسمح للجزائريين بالثقة في أناس يدعونهم باسم (الله، ومحمد) إلى الثورة وينتزعونهم من أعمالهم الزراعية، بينما نضطر نحن إلى استعمال القوة باستمرار لإجبار الأهالي على اتباع آرائنا.

وهذا العقيد كان رئيسا للمحافظة السياسية وقدم درسا بعنوان : (الإخوان والطرق الدينية لدى مسلمي الجزائر عام 1845) حاول أن يكشف فيها القناع عن أشياء كثيرة لم يكن الفرنسيون على علم

الدخول الاستدماري، وهو شخصية إسلامية تربى في أحضان أسرة عريقة في التدين، وكان والده رجل علم وتصوف وجهاد، وكانت الزاوية القادرية التي تسيرها أسرته مركز إشعاع لهذه البيئة الدينية العلمية، وقد تخرج فيها الأمير إماما عالما، ومفكرا مستنيرا، وقائدا مجاهدا، فبايعته الأمة أميرا، ولقبته (ناصر الدين).

واستطاع الأمير عبد القادر أن يجمع في جهاده ما بين التصدي للغزو الفرنسي الصليبي بسيفه، في المعارك الضارية، وبين إسهامه بفكره وقلمه في عملية بناء الصحو، وإيقاظ الأمة، مثل جمال الدين وغيره.

فقد حرص الأمير على توحيد الصفوف، حيث وجد في الزوايا والطريقة الرحمانية ببلاد القبائل نعم السند، وقوة العضد، وخاصة بعد زيارة له إلى المنطقة عام 1839 حيث توجه مباشرة إلى زاوية الشيخ بن عبد الرحمن، ومنها إلى أماكن أخرى، وتحت حراسة ومساعدة طلاب الزوايا، وعين عليها (المنطقة) أحمد بن سالم زعيما عاما لتنظيم المقاومة، كما عين

العام أمرا إلى المكاتب العربية يؤكد على ضرورة القيام بدراسة ومراقبة الزوايا والمساجد ... ونشاط كل طريقة وتنظيمها، والعلاقة بينها وبين غيرها، والوسائل التي تستعملها في تحريض الجماهير ضد الوجود الفرنسي، وقد جاء هذا الأمر بعدما لوحظ إهمال تلك الجوانب في التقارير اليومية والشهرية وعلى الرغم من المتابعة الدقيقة، فإن جهاز المخابرات الفرنسية قد عجز عن اكتشاف شيء واضح للتنظيمات الداخلية لهذه الزوايا، وقد عبر عن ذلك (ما كماهون) عام 1851 قائلا: (يجب على الإنسان أن يقضي حياته كلها في الزاوية حتى يعرف ما يجري فيها، وما يقال فيها) .

وذلك بسبب قوة نفوذ الزوايا، ولا سيما الطريقة الرحمانية التي قال عنها (دنوفو deneveu): (كل خطوة نخطوها في الجزائر إلا ونلاحظ تواجد الطريقة الرحمانية، بمحاولاتها القضاء على المسيحيين، لأنها (الطريقة الرحمانية) متمكنة من إحداث فجوة عميقة بين الجماهير الشعبية والسلطة الفرنسية)، ومن ذلك ما أشارت إليه أيضا أيفون توران في كتابها: المجابهة الثقافية

بها حول الزوايا في تنظيمها أو علاقاتها، أو في الوسائل التي تستخدمها، أو نفوذها السياسي والديني، وقد جاءت هذه الدراسة بعد فترة طويلة من التحريات التي قام بها المؤلف داخل المجتمع الجزائري، من استجوابات إلى معاشة، وقد أفصح المؤلف عن الأهداف التي حملته على تناول هذه الدراسة بقوله: (إن هذا العمل يعتبر ثمرة لجهد قمنا به من أجل أولئك الرجال الذين يحتلون مواقع متقدمة في هذه الأرض الأفريقية، ومن أجل أن يستفيدوا منها في توسعهم داخل هذه الأرض) .. وما هؤلاء الرجال إلا جيوش الغزاة: من عساكر و فرق التنصير.

وأصبح الكتاب حقيقة مصدرا لا يستغني عنه الباحث المختص، أو كل من له اهتمام بالزوايا والمسائل الدينية في الجزائر، كما يعد الكتاب ضوءاً للحكومة الفرنسية لتهتم بقضايا الزوايا في سعيها لمعرفة البلد.

وقد شرعت الحكومة فعلا في إصدار تعليمات لضباط المكاتب العربية حول ضرورة اكتشاف الخلايا الجهادية، ففي تاريخ 27 نوفمبر 1847 أصدر الحاكم

لمجد بن عبد الملك المشهور بـ (بوبغلة)
ولالة فاطمة نسومر، وبمساعدة مقدمي
الطريقة الرحمانية ونذكر منهم :

01 - الشيخ صديق وأعراب : وهو

من عائلة شريفة محترمة لها معمرة (زاوية)
في تيزي راشد، متوسط الثقافة، وكان
قناصا ماهرا، ولم يكن بالرجل الحربي،
وتأثيره يعود إلى ذكائه ونسبه، وبغضه
الشديد للفرنسيين، وهو الذي تزعم قبيلة
آث إيراثن في معركة 28 ماي 1837
بمنطقة يسر، وبمشاركة قبيلة آث جناد،
وقد صدت بها القوات الفرنسية منعها
من الزحف إلى ما وراء يسر.

وهو الذي حرض السكان على
العصيان وسط السوق يوم 30. جانفي.
1855 عندما تقدم أمام الجميع رافعا علم
الزاوية، وهدد (القيادة) بألفاظ قاسية،
وتحذيرات مرة خطيرة، فتدخل بعد ذلك
الباشاغا محمد أوقاسي الذي عمل على
إرسال قوات مسلحة لإخضاع المتمردين
التابعين للشيخ وأعراب بآث إيراثن يوم
09. فيفري. 1855 وللرجل مواقف
كثيرة لا يتسع المقام لتناولها جميعا.

02 - الحاج أعمر: وهو قيم زاوية

في الجزائر المستعمرة قالت : (فمند
استقرارهم) أي الفرنسيين بالجزائر
قرروا إنشاء مدارس للأطفال المسلمين،
ولقد كانت دهشتهم كبيرة حينما لم يروا
أحدا يدخلها...) وفسرت الظاهرة بتأثير
الزوايا على السكان.

وهذا تقرير (شارون) الحاكم العام
الفرنسي في الجزائر، إلى وزير الدفاع
بتاريخ : 22 ديسمبر 1849، ويقع
هذا التقرير الصارخ في 39 صفحة،
وهو موجود في أرشيف بـ (أكس آن
بروفانس)، ونقتطف منه ما يلي:

(... إن الذي حدث يبرهن بوضوح،
أننا لا يمكن أن نحصل على هدوء تام
فيما هذه البلاد بوجود شعب متعصب
سهل التحريض، هذا الشعب العربي
يجب علينا في كل لحظة أن نتوقع ظهور
أحداث جديدة، وأن نكون على استعداد
دائم لقمعها... وإن الزوايا هي المعمل
الحقيقي للتعصب، وهي السبب وراء كل
القتال) .

وقد أدت الزوايا والطريقة الرحمانية
دورا أساسيا في كل الحركات الجهادية،
وكان من قادتها بمنطقة القبائل محمد بن

(دوقو) نفسه، ثم احرق البرج، ولكن سي الجودي قد هرب.

وهو الذي زحف بنفسه يوم 02 سبتمبر. 1856 على رأس إخوانه إلى الحصن المركزي بذراع الميزان، وتواصلت المعارك حول هذه المدينة إلى غاية يوم: 22 من الشهر نفسه، حتى تم الاستنجاد بقوات كبيرة من الجزائر، والبليدة، وسور الغزلان تحت قيادة الجزالات: يوسف، رونو، راندو، قاسطو، وقدرت تلك القوات بسبعة آلاف رجل، ومنهم 198 ضابطا، ومن جملتهم رمز البطش والقهر (بوبريط) الخبير بالمنطقة، وهو الذي بنى حصن ذراع الميزان عام 1851 وقاوم بوبغلة في المنطقة مدة طويلة.

وهو الذي ساعد بوبغلة على نقل عائلته من إيلولا أومالو، لكونها منطقة محفوفة بالمخاطر إلى قرية أولاد علي قرب واسيف، وبمجرد أن علم بوبريط حاكم ذراع الميزان بخبر عائلة بوبغلة امر الباشاغا سي الجودي بإلقاء القبض عليها، وقبل السكان تسليمه بعد التهديد، ولكن زوجة الحاج أعمر تدخلت بسرعة، وهددت السكان بتسليم نفسها معهم،

الشيخ محمد عبد الرحمن بآث إسماعيل، وهو زوج الشيخة فاطمة إحدى بنات الشيخ على بن عيسى الخليفة الأول لمؤسس الزاوية، وهو أبرز من وقف في وجه سي الجودي بعد تحوله من صف المقاومة إلى ضدها، وقبوله لمنصب (آغا) في ناحية واضية التابعة للحاكم الفرنسي بذراع الميزان.

وقد كان يحضر لثورة شاملة تعم البلاد، ويشرف فيها هو على ناحية ذراع الميزان، ويشرف الشيخ وأعراب على ناحية تيزي وزو، ويشرف صديقه سي محمد بن عبد الرحمن على ناحية بني منصور، وغير ذلك من المناطق، ولو أن هذه الخطة لم تحقق نجاحا كبيرا، ولكنها كانت بداية لانتفاضة عام 1857، ففي تقرير وجهه (دونوفو) من تيزي نثلاثة بذراع الميزان وبتاريخ 24. أوت. 1856 يشير إلى أن الحاج أعمر تمكن من جمع مختلف القبائل بالمنطقة، حتى القبائل الخاضعة لفرنسا وزحف بها على البرج الذي كان فيه الجودي بالواضية، وقد قتل في هذا الهجوم أحد أعوان فرنسا وهو القائد سليمان بن كفيف، كما قتل عسكريا، وجرح خمسة ومنهم الضابط

رفض تطبيقها.

04 - الشريف بوعود، ومولاي

إبراهيم : الذي ارتبط بزوايتي سيدي أحمد بن إدريس بإيلولة أومالو، وزاوية سي أحمد والسعيد في عذني وبني عيسى، **وأحمد بن سالم:** حاول هؤلاء الثلاثة أن ينسقوا العمل فيما بينهم بجبال جرجرة، وحصلوا على أسلحة ومساعدات مادية من الشيخ المبارك شيخ الزاوية الرحمانية بآيت بويعلي في بني دواله، وتولى مولاي إبراهيم كتابة الرسائل إلى عدد من الزعماء بالمنطقة دعاهم إلى حمل السلاح لمحاربة الفرنسيين، وامتد تأثيرهم إلى مناطق أخرى : جبال البابور - جيحل - القل.

05 - الشريف بوحمارة : وهو ابن

سي قويدر التيطراوي المنتمي للطريقة الدرقاوية، والذي انزوى عند بني بوشنافة، بعد وفاة بوبغلة، ولما كانت شهرته لا تسمح له بالظهور كشريف جديد، قدم ابنه على أساس أنه (مول الساعة) وظهر لأول مرة عند بني يراثن بلباس درويش ممتطيا أتاناً، ولهذا أطلق عليه لقب بوحمارة، أما اسمه الحقيقي فهو المختار بن قويدر إلا أنه ظهر باسم يحيى بن يحيى أخ الشريف يوسف

ونظرا لمكانتها المحترمة، تراجع السكان عن قرار التسليم، وأخفيت عائلة بوبغلة في قرية بو عبد الرحمن ببني واسيف، حيث يقيم الحاج أعمر بعد أن هرب من مضايقات بوبريط، ثم نقلن مرة أخرى إلى بني بني إمعانا في التخفي، ثم التحقن بلالة فاطمة نسومر حتى اعتقلن معها عام 1957.

03 - إخوة لالة فاطمة نسومر :

سي الطاهر قيم زاوية سيدي محمد أمزيان، سي محمد، سي شريف، وسي الحاج كلهم من المقاومة، وكان لأختهم فاطمة دور شرف، وحسب رواية ييري (perret) فإن لالة فاطمة نسومر، وهي سليلة الطريقة الرحمانية والتربية الروحية العالية، قد ترعمت المقاومة في المنطقة منذ عام 1854، أي بعد أن وصلت القوات الفرنسية بقيادة راندون (RANDON) إلى جبل سبت ناث يحيى (عين الحمام)، وكانت لها اتصالات بالزعيم بوبغلة، وشاركا معا في معارك طاحنة، حتى أن بوبغلة جرح في إحداها وأنقذت حياته، ويشير هذا الكاتب إلى أن بوبغلة طلبها للزواج، ولكنها ما زالت في عصمة زوجها السابق سي يحيى بوخولاف الذي

وان المعمرات قد أدت دورا عظيما في المقاومة في كل الفترات، وذلك إيمانا بأن مقاومة الاحتلال الأجنبي واجب ديني.

غير أن الذي تأثر له السكان كثيرا هو أن تتمكن فرنسا من كسب بعض الرجال الذين كانوا في المقاومة إلى جانبها، ويدعنوا لأوامرها، وكان لاستسلامهم الخطر الداهم على المنطقة مثل: أحمد بن سالم خليفة الأمير عبد القادر، وبلقاسم أوقاسي الذي أصبح باشاغا منطقة سباو.

أما الأول فقد شدد عليه الخناق عام 1847 وسمح له بالهجرة إلى دمشق وتوفي بها عام 1857، وهكذا وجد أتباع الأمير عبد القادر بالمنطقة أنفسهم دونه قيادة فأصبحوا يساندون مختلف الزعماء الذين ظهروا فيما بعد.

أما الرجل الثاني فأصبح بعد استسلامه عام 1847 خادما للمصالح الفرنسية، ناقما على كل مقاومة.

مقاومة 1871.

بالرغم من انعدام تكافؤ القوى بين الشعب الجزائري، وبين المحتلين، فإن المقاومة لم ينطفئ أوراها، فما يكاد

الذي قتل عام 1849 بالشرفا، وبسببه قرر الحاكم العام للجزائر يوم 29 أكتوبر. 1855 تعيين النقيب (BETHUNE) على مركز تيزي وزو، وفصل منطقة سباو عن دلس.

وهكذا لم تتمكن قوات الاحتلال من السيطرة على منطقة القبائل إلا عام 1857، أي بعد 27 سنة من سقوط الجزائر، وهذا يعود لسببين على الأقل:

01 - مناعة المنطقة باعتبارها جبلية في معظمها.

02 - قوة المقاومة التي أبدتها السكان.

وقد استعملت فرنسا قوات جرارة، وخاصة بعد توقف المقاومة في بقية جهات الوطن، ومنها حملته المارشال راندون عام 1857 بتلك الحشود الهائلة في عدد الجنود والضباط والعتاد المجموع من مختلف جهات الوطن لكسر مقاومة تقودها امرأة بجنود مسبلين، فلقبوها بجاندارك الجزائر، ولكن لالا فاطمة نسومر أرفع قدرا وأنبى أخلاقا من جنداركهم.

وقد قامت فيها الزوايا بوظيفتها الأصلية، فجرعتها فرنسا الحاقدة مرارة الهدم والقتل والتشريد لشيوخها وطلابها ومريديها.

وخير ما نستشهد به لقالة الغمظ، ولكل المترددين والمتشككين في فضل الزوايا والطرق الصوفية على استمرار المقاومة الشعبية في الانتفاضات المتعددة وفي ثورة التحرير المضفرة هو أن نحيلهم:

أولاً: إلى مقابر الشهداء في المناطق والقرى التي بها زوايا ليقارنوا بينها وبين غيرها من المناطق والقرى الخالية من الزوايا.

وثانياً: إلى الإطلاع على كتابات الضباط الفرنسيين الذين استشهدوا بأقوالهم في هذه الدراسة، وغيرهم.

وثالثاً: إلى الإطلاع على كتاب الشهداء منطقة الأوراس الجزء الأول من إنتاج جمعية رواد مسيرة الثورة في منطقة الأوراس الصادر بتاريخ 2002 الذي تناول جوانب من حياة 144 شهيدا وسيكتشف المطلاع أن أغلبية هؤلاء الشهداء لهم ارتباط بالزوايا أو بالطرق الصوفية.

يخمد لهيها هنا .. إلا ليشعل هناك ..
لفضل ذلك الوقود الروحي الذي يعاف المهانة والخضوع للكفار، فقد قامت الزاوية والطرق الصوفية بنفخ شرارة الجهاد ضد الغاصبين في كل حين، وسبقى تذكر الشيخ الحداد مقدم الزاوية الرحمانية بصدوق، وقد تجاوز الثمانين من عمره، وهو يجول الأسواق رافعا راية الجهاد لثورة عارمة عام 1871 ثم يخلفه ولده سي عزيز الذي لقب بـ (أمير المجاهدين)، وهو لقب غير مبالغ فيه، إذ ألحق بالفرنسيين أكبر الضرر. فنفي بعد اعتقاله إلى كاليدونيا الجديدة عام 1881، ونفيت أسرته وإخوانه إلى قبرص، وقد أوصى الشيخ الحداد قبل وفاته في السجن أخذاً بالاحتياط لضمان مواصلة الدعوة الروحية - استخلاف سي الحاج الحملاوي من بعد وفاة ابنه عزيز.

ويشاء الله عز وجل ألا تنطفئ جذوة المقاومة في أسرة الأمير عبد القادر ليظهر حفيده الأمير خالد، ويكون نواة لحركة سياسية صلبة تصل إلى إشعال ثورة التحرير الكبرى، وتنتهي باسترجاع السيادة الوطنية.

وكيف يهزم أبطال لنا شفعا

رمي الرصاص بتكبير وإهلال

وإن الوقوف على مقابر الشهداء
بمنطقتنا هذه، أو غيرها يؤكد لنا خلفية
ثورة التحرير (54-1962) التي كانت
تعدُّ ثورة شعبية، ولم تكن - كما تزعم
الإدارة الفرنسية - ثورة قطاع الطرق أو
فلاقة...

فقد ضرب الشعب بثورته أروع
الأمثلة في الإنسانية، كالنفو عن المساجين
من جنود العدو وإطلاق سراحهم في
مواقف عديدة، والترفع عن الاعتداء على
المدنيين ما داموا مسلمين، بل ترفع فوج
المجاهد محمد بن صدوق في 27 ماي
1957 عن تصويب رصاصة واحدة نحو
الرئيس الفرنسي (روني كوتي) في ملعب
كولومب بباريس والترم هذا المجاهد
البطل أوامر قيادة جبهة التحرير بالقضاء
على الخائن (علي شكال) الذي كان قرب
الرئيس الفرنسي.

وهكذا تعالت قيم الشعب الجزائري
على الاستعمار الوحشي للجيش
الفرنسي، ولقن لشعوب العالم درسا لا
مثيل له في الإنسانية، وليس من الضروري

وإن الأمر نفسه هو الذي سيتأكد لمن
يتناول تراجم حياة شهداء منطقة القبائل،
وغیرها من المناطق.

إذ ما من ثورة تغييرية في التاريخ إلا
وقد سبقها حركة فكرية نفسية، فالثورة
الفرنسية عام 1789 على سبيل المثال
مسبوقة بثورة فكرية مازال روادها يشار
إليهم بالبنان : (فولتير، روسو، هيغو ...
وغیرهم).

ولولا جهود الزوايا لما وجد الأمير
خالد بعد الحرب العالمية الأولى أنصارا
ومؤيدين، ولا وجد الشيخ عبد الحميد بن
باديس عقولا مهياً لفهم دعوته البعيدة
المرامي، وإدراك جهاده في سبيل تحرير
هذا البلد.

وإن المزج بين الدين والوطنية هو
النواة الحقيقية للحركة الجادة التي هزت
كيان العدو في الصميم.

إذ أن كلمة السر ليلة أول نوفمبر
بين المجاهدين هي : (خالد، عقبة)،
وهتاف الجميع أمام العدو، وعند تنفيذ
العمليات بالعبارة المقدسة (الله أكبر)،
وكانت البداية، وكانت النهاية.

على عدم قدرتي على إنجاب غيره ليقضي
على أمثالك !.

وقصة مجاهد طاعن في السن، قد تحصن
في معركة من معارك المنطقة وراء صخرة،
وظل رشاشه يحصد كل من يظهر من
جنود العدو إلى أن سقط شهيدا، فتقدم إليه
الضابط الفرنسي بحذر شديد، وازدادت
دهشته حينما شاهد لحيته البيضاء، وتجمد
أمامه هنيهة ثم مديده إلى قلنسوة برنوسه،
فاستخرج منها ما أبكمه وأفحمه .. إنه
مصحف القرآن الكريم وكسرة رغيف
شعير يابسة وبصلة. فاضطربت الأفكار
في رأس الضابط، وجنح به الخيال... إلى
أن تيقن أن ساعة خروج جيشهم الذي
أبطرته خيرات الجزائر قد أزفت ...
فتنهذ مليا، ثم اكفهر أمام جنوده يلومهم
ويوبخهم، وهو ممسك بكسرة الرغيف
محاولا تفتيتها وتمزيقها، وكأنها هي أرض
الجزائر، وصخور الجزائر، وقلوب أهل
الجزائر.

وقصة ثالثة لطفل جزائري تعود
الفرنسيون أن يبعثوه ليحضر لهم الماء في
الأوعية الخاصة بالجنود، وتسع تقريبا لثرا
واحدا، من عين ماء تبعد بعض الشيء عن

أن تتناول وحشية الجيش الفرنسي، فهي
أكبر من أن تحصى .. إذ ما زالت بعد قرن
ونصف من حكم (بوبريط) على دائرة
ذراع الميزان وغيرها ألسنة تلهج بوصف
البطش والقهر بقولها : (واقى ذلوكم
بن بوبريط).

ولقد واكبت القصائد الشعرية
الأمازيغية أحداث المقاومات الشعبية
 بالمنطقة، وكذا ثورة نوفمبر المظفرة،
ونذكر من بين الشعراء المشهورين على
سبيل المثال لا الحصر: الشيخ الحاج سعيد
بولما قشتوم - سليمان عازم - فريد علي
.. وغيرهم.

كما يمكن أن نذكر من القصص البطولية
الخالدة قصة خنساء القبائل - حسب
تعبير الكاتب محمد الصالح الصديق -
وهي قصة امرأة دفعت بابنها الوحيد إلى
ساحة الجهاد وميدان الشرف، ولما سقط
شهيدا، وجيء به إلى ساحة القرية وأمام
السكان تنكيلا به وتخويفا لغيره، فتعرف
عليه الجميع، وأجهشت أمه بالبكاء .. ثم
زغردة، فتقدم إليها أحد الخونة، وقال
لها: ما ذا نفعلك تحريضك أياه للجهاد،
فأجابته بشجاعة لم يتوقعها.. إنني أبكي

مهيدي وعميروش وديدوش ... وغيرهم من الأبطال المشهورين والمغمورين. حتى انتصر الشعب الجزائري الضعيف على فرنسا القوية، وانتصر الرجل الأمي البسيط على الجندي الفرنسي المتعلم المتكون، وانتصرت البصلة وخبز الشعير على لحم الخنزير و (الكومبير) وليس هذا الانتصار خروجاً عن القاعدة، ولا عن طبيعة الأشياء ... وإنما هو الروح التي تسري في هذا دون ذاك، إنه الإيمان والقيم والأخلاق ... وليس دعوة منا للتهوين من شأن القوة المادية، وتحصيل الخبرة الميدانية في كل القضايا لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الأنفال: ٦٠، إن القوة الروحية قبل القوة المادية، وإن أعداءنا لا يفتأون من نسج المكائد والمؤامرات لتشويه شخصيتنا الإسلامية من أجل تمزيق وحدتنا، وتوهين قوتنا والاستيلاء على خيراتها.

الثكنة، وقد كان هذا الطفل يسمع أو يشاهد أحيانا ألوان التعذيب التي يتعرض لها السكان، فاهتدى إلى وسيلة للمقاومة تعد أغرب شيء ينتبه إليه، وهي أن يفرغ في كل وعاء كمية من بولته الحارة تنجيساً لبطون الأعداء المليئة بالطعام الشهي، وثأراً للبطون الفارغة من الطعام ولو كان غير شهية ...

ولا سيما وأنه سمع من معلمه بكتاب القرية أن الجنود الفرنسيين هم السبب في أمية الآباء، وقلة الدواء، وأنهم كفرة ووباء فلا يجوز الصدق معهم ولو كان بالإغراء، وأن كل سعي لمحاربتهم يستحق الثناء ...

وبهذا - وغيره - ندرك أن المقاومات الشعبية، وثورة أول نوفمبر، لم تكن مجرد حركات للقتال هنا أو هناك ... لغرض عرضي، وإنما هي فلسفة ذات جذور في أعماق النفسية الجزائرية، إنها فكرة الإسلام في غير تعصب ديني، وتشبث بالقومية من غير تعصب عنصري، وتعلق بالوطن في غير تعصب جهوي.

ففي حمى هذه المقاومات جاهد الأمير عبد القادر والشيخ الحداد، وابن

الهوامش

- 1 - بقبول برنوس الحكم (قايد - آغا - باشاغا) مثل بلقاسم أوقاسي، وأخوه محمد، سي الجودي، ابن علي الشريف، لخضر المقراني، وغيرهم.
- 2 - لسان العرب ابن منظر ج 12.
- 3 - مصطفى الأشرف - الجزائر : الأمة والمجتمع ص 415.
- 4 - AGERON.op. cit.p.19
- 5 - محاضرة الأستاذ محمد الطاهر عزوي بالملتقى الوطني الثاني حول البعد الروحي في ثورة التحرير - نشرة وزارة الشؤون الدينية ص 126.
- 6 - ROBIN (NOTES Historiques sur la Kabylie de 1830) p.64
- 7 - محمد بن سميعة - العامل الروحي في الثورة المباركة - الملتقى الوطني الثاني - نشرة وزارة الشؤون الدينية ص 220.
- 8 - Les Khouan ordres religieux chez les musulmans de l'Algérie édition Alger 1913 p :153
- 9 - تقرير شارون الحاكم العام الفرنسي في الجزائر - وهو موجود بأكس بروفانس بفرنسا -AOM- AH6
- 10 - المجابهة الثقافية في الجزائر المستعمرة.
- 11 - محمد سي يوسف - مقاومة منطقة القبائل ص 38.
- 12 - محمد سي يوسف - مقاومة منطقة القبائل للاستعمار الفرنسي وثورة بويغلة / ص:26.
- 14 - المرجع السابق.
- 15 - محمد سي يوسف - مقاومة منطقة القبائل ص : 71 نقلا عن (LES / RIBIN .IMESSEBELEN).
- 16 - شارل اندري جوليان - إفريقيا الشمالية تسيير ص 133.